

أبى سحنون

ورد دعوى انتحال كتابه "الأجوبة"

الدكتور الحسن أشفري

تمهيد

لقد تناولت بعض الأعلام أجوبة أبي عبد الله محمد بن سحنون المتوفى سنة 256هـ هل هي حقيقة من نتاج هذا العالم الكبير؟ أم إنها منتحلة عليه؟ ولقد اشتغلت بهذه الأجوبة لفترة طويلة نسبياً، وتوصلت إلى حقائق هامة حولها وحول صاحبها، وحتى أضع القارئ على الصورة الحقيقية لهذه الأجوبة، وبالتالي أزيل بعض اللبس فيما قيل حولها، لا بد في البداية من أن أعرف بصاحب هذه الأجوبة وسيرة حياته وآثاره في المبحث الأول، لأنقل بعد ذلك في المبحث الثاني إلى الحديث عن دعوى انتحال الأجوبة للرد عليها.

المبحث الأول

سيرة حياته وآثاره

أولاً: سيرته وحياته

(1) اسمه ونسبه¹:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام - سحنون - بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي²، قدم جده سعيد بن حبيب مع جند أهل حمص في القرن

¹ - ترجمة محمد بن سحنون في المصادر التالية: رياض النفوس: 1/443. معالم الإيمان: 1/122. ترتيب المدارك: 4/204. طبقات الحنثي ص: 129-133. طبقات الفقهاء ص: 157-158. العيون والحدائق: 4/12-13. الكامل لابن الأثير: 7/217. عبر الذهبي: 31/2. تذكرة الحفاظ: 2/130. البيان المغرب: 1/115. الوافي بالوفيات: 3/86. مرآة الجنان: 2/180. السديج المذهب: 2/169. شذرات الذهب: 2/150. وفيات ابن قنفذ ص: 143.
² - رياض النفوس: 1/345، الحلل السندسية: 1/285، معجم المؤلفين: 6/224.

الثاني الهجري، ضمن حملة من الحملات المتعاقبة التي أرسلتها دمشق تعريزا للفتح الإسلامي في بلاد المغرب.

(2) مولده:

ولد محمد بن سحنون في بيت علم سنة 202هـ بالقيروان، وهي مدينة غدت مركز إشعاع المذهب المالكي في المغرب، وتربى في كنف والده الذي تولاه وأدخله على عادة أهل القيروان الكتاب ليتعلم القرآن وأصول الكتابة، وطلب سحنون من معلمه "ألا يؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، فهو ليس ممن يؤدب بالضرب والتعنيف، فإني أرجو أن يكون نسيج وحده، وفريد أهل زمانه، وأتركه على نخلي"³.

قال سحنون ذلك لما كان يلوح على ابنه محمد في صغره من مخايل الذكاء والاستعداد الفطري الذي منحه البارئ تعالى، حتى لقد قال فيه مرة: "ما أشبهه إلا بأشهب"⁴ بعد أن لمح فيه مخايل الذكاء والاجتهاد، حتى إنه كان يخاف أن يكون عمره قصيرا، وكان يقول: "ما غبنت في ابني محمد، إلا أي أخاف أن يكون عمره قصيرا"⁵.

لقد كان لسحنون أثر كبير في توجيه ابنه محمد، فقد كان دائم الرعاية والاهتمام به، ويبدو من خلال ذلك الاهتمام أثر الآباء في تربية أولادهم إذا تعاونوا مع إدارة المدرسة.

(3) طلبه للعلم:

جلس محمد بن سحنون يتأدب على يد والده، بعد أن أخذ حظه من القرآن الكريم، وكان يناظر أباه، كما كان يسمع بعض كتب أبيه في حياته، يأخذها الناس عنه قبل خروج أبيه، فإذا خرج أبوه قعد مع الناس يسمع معهم من أبيه⁶، وتبحر محمد بن سحنون في علوم الشريعة، فبرز فيها واشتهر، فأشار عليه والده بأداء فريضة الحج، والأخذ عن علماء مصر والحجاز سنة 235هـ.

وقد خرج ابن سحنون من القيروان قاصدا مصر في طريقه لأداء فريضة الحج، ولما وصلها أقبل عليه علماء مصر يهتئون به بالسلامة، وأتى الناس يستمعون منه، وأتاه الزني صاحب الشافعي فيمن أتاه، وجلس معه كثيرا ليقبل الناس ويخلو به، فلما خرج قدمت إليه دابته

³ - رياض النفوس: 443-444، ترتيب المدارك: 205/4.

⁴ - ترتيب المدارك: 205/4.

⁵ - معالم الإيمان: 124/2.

⁶ - ترتيب المدارك: 205/4، رياض النفوس: 444/1.

ليركب، ف قيل له: «كيف رأيته؟ قال: لم أر - والله - أعلم منه ولا أحد ذهنا على حداثة سنه»⁷.

ومن بين الطرائف التي ذكرها له المترجمون ويستحسن إدراجها هنا، ما وقع له مع يهودي في مصر أثناء رحلته للحج، فقد ذكروا أن له صديقا⁸ يصاحبه يطلب عليه الفقه وعلم الكلام، ولم يكن في علم الجدل بالماهر، فخرج إلى الحج فمر بمصر، فدخل حماما بها فإذا عليه رجل يهودي، فتناظر معه الرجل، فغلبه اليهودي لقلة معرفة الرجل، فلما حج رجع إلى القيروان وفي قلبه حسرة وألم، إذ لم يكن عنده من المناظرة ما يدحض به حجة اليهودي، فهاب أن يذكر الحكاية لشيخه، فقضى الله تعالى أن يخرج محمد بن سحنون إلى الحج فصاحبه ذلك الرجل إلى مصر، فقال له: امض بنا رحلك الله إلى الحمام، فأجابه ابن سحنون إلى ذلك، فمضى به إلى الحمام الذي عليه ذلك اليهودي، فلما خرج ابن سحنون، سبقه ذلك الرجل بالخروج، فأنشب المناظرة مع اليهودي، فلما خرج ابن سحنون وجدهما يتناظران، وقد استعلى اليهودي على الرجل بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل، لضعف الرجل وقلة معرفته بالمناظرة، فدخل معهما محمد فيما هما فيه، ورجعت المناظرة بين اليهودي ومحمد بن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر، فأقام محمد الصلاة وصلى، وعاد إلى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر، فأقام محمد الصلاة وصلى العصر، ثم عاد إلى المناظرة، فلم يزل إلى صلاة المغرب، فصلاها محمد، ثم كذلك إلى العشاء، ثم إلى العشاء الآخرة، ثم إلى الفجر، وقد اجتمع الناس إليهما من كل موضع، وشاع ذلك بمصر، وقال الناس بعضهم لبعض: امضوا نسمع المناظرة بين الفقيه المغربي وبين اليهودي، فلما كان عند صلاة الفجر انحصر اليهودي وانقطع عن الحجة، وظهر عليه ابن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة، فلما تبين لليهودي الحق بالبرهان، وأراد الله عز وجل هدايته، قال عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله! فأسلم وحسن إسلامه، فكبر الناس عند ذلك، وعلت أصواتهم بالتكبير وقالوا: أسلم اليهودي على يد الفقيه المغربي! فقام محمد وهو يمسح العرق عن جبينه، ثم رد وجهه إلى صاحبه وقال: لا جزاك الله خيرا عني، ولأمله أشد اللوم وقال له: (كاد أن تجري على يديك فتنة عظيمة، كيف تأتي إلى

⁷ - معالم الإيمان: 2/125، رياض النفوس: 1/444.

⁸ - هو أبو الفضل أحمد بن علي بن حميد أخو علي بن الوزير، كان عالما محدثا جماعا للكتب، انظر: ترجمته في: الرياض: 1/479.

رجل يهودي تناظره وأنت ضعيف المناظرة والجدال... ولولا أي خفت الفتنة على الناس أن يداخلهم شك في دينهم ما ناظرته⁹.

اتجه بعد انتهاء الحج نحو المدينة المنورة، ودخل المسجد النبوي الشريف، فوجد جماعة محلقين على أبي مصعب بن أبي بكر الزهري المتوفى 242هـ، وهو متكئ لكبر سنه، والطلبة يتنازعون لديه في مسألة من مسائل أمهات الأولاد، فبينهم محمد إلى نكتة غريبة، فاستوى أبو مصعب جالسا وكررها، فزاد ابن سحنون أخرى، فالتفت إليه الزهري وسأله: من أي البلاد أنت؟ قال: من إفريقية، قال: من أي بلدة؟ قال: من القيروان، فقال أبو مصعب: ينبغي أن تكون أحد رجلين: إما محمد بن سحنون، وإما أحمد بن لبده (ت: 261هـ) -ابن أخي سحنون-، لأن هذا التنكيت لا يخرج إلا من أهل القيروان، فعرفه عندئذ محمد بنفسه، فقام إليه الزهري وصافحه وخرجوا من المسجد، وجعل ابن سحنون يعلي على الشيخ بالطريق وهو يكتب المسألة، وأضافه مدة إقامته¹⁰.

لقد تعرف محمد بن سحنون في هذه الرحلة على كثير من أئمة العلم، ثم رجع إلى بلاده مملوء الوطاب، وشاع ذكره بين طبقات العلماء والفضلاء في سائر الأنحاء.

عاد ابن سحنون إلى القيروان وأبوه متولي القضاء بها، فانكب على تدوين نتائج أبحاثه وتأليف مروياتها، حكى عن نفسه فقال: دخل علي أبي وأنا أولف كتاب "تحريم المسكر" فقال يا بني: إنك ترد على أهل العراق، ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد، فإياك أن يسبقك قلمك إلى ما يعتذر منه¹¹.

(4): شيوخه

أشار المترجمون لابن سحنون إلى أنه تفقه في مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه على جماعة من الشيوخ، سواء في القيروان أو مصر أو الحجاز، مما يصعب معه حصر عدد شيوخه، وسأكتفي بذكر البعض منهم وهم:

(أ) والده: أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد في القيروان سنة 160هـ، ونشأ فيها وتعلم على مشايخها، كالعباس بن أشرس، والبهلول بن راشد، وابن غانم،

⁹ - ترتيب المدارك: 215/4، معالم الإيمان: 125/2، رياض النفوس: 450/1-451.

¹⁰ - كتاب آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ص: 7، المذهب التربوي عد ابن سحنون ص: 29، معالم الإيمان: 127-126/2.

¹¹ - ترتيب المدارك: 207/4-208.

ومعاوية الصمادحي، كما تلقى عن علي بن زياد في تونس موطأ مالك، وأخذ الأسدية عن أسد بن الفرات، بعد عودته من المشرق.

(ب) موسى بن معاوية الصمادحي: (160-226)، هو من ولد جعفر بن أبي طالب، كان ثقة مأمونا، عالما بالحديث والفقه، أخذ عن المدنيين والكوفيين والبصريين وغيرهم، سمع من وكيع بن الجراح، والفضيل بن عياض، وعلي بن مهدي، وجريز بن عبد الله، كما سمع من ابن القاسم وغيره، وسمع منه عامة أهل إفريقية في عصره.

قيل لسحنون: إن موسى بن معاوية جلس في الجامع يفتي الناس، فقال: ما جلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحق بالفتيا من موسى بن معاوية¹².

(ج) أبو محمد: عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت 140-227هـ)، كان يسكن القيروان، ورحل إلى مالك فكان عنده مكرما، كما سمع من ابن أبي ذئب، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، كان له علم وفصاحة، مقدم في شيوخ إفريقية، ثقة، وكان أعلم الناس بالتاريخ، وكان سفيان بن عيينة يقبل عليه إذا أتاه ويحبه ويحمله.

قال عنه سحنون: كنت في أول طلبي إذا انغلقت علي مسألة مضيت إلى ابن أبي حسان فأعلمته بذلك، فكان بيده مفتاح لكل ما انغلق¹³.

ومن أخذ عنهم العلم بمصر أثناء ذهابه للحج:

(د) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني المصري (ت: 264هـ) كان زاهدا عالما مجتهدا محججا، وهو إمام الشافعية وأعرفهم بأقوال إمامهم، ألف كتبها عليها مدار مذهب الشافعي¹⁴.

(و) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين (150-214) أفضت إليه الرئاسة بمصر بعد أشهب، وكان أعلم أصحاب مالك، وله سماع من مالك: الموطأ وثلاثة أجزاء، روى عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب كثيرا، كما صنف كتابا أختصر فيه أسمعته، ثم اختصر منه كتابا صغيرا، وعلى هذين الكتابين مع غيرهما معول المالكيين من البغداديين في المدارس¹⁵.

ومن الذين أخذ عنهم من أهل المدينة:

¹² - ترتيب المدارك: 93/4-96، المعالم: 51/2، رياض النفوس: 276/1-280.

¹³ - انظر ترجمته في: المعالم: 58/2، الكامل: 530/6، الديباج: 418/1، المدارك: 310/3.

¹⁴ - الفكر السامي: 124/2، طبقات الشافعية: 238/1.

¹⁵ - انظر الديباج ص: 134، المدارك: 363/3، شجرة النور ص: 59، الفكر السامي: 95/2.

(ز) أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري (ت 242هـ)، روى الموطأ عن مالك، وتفقه بأصحابه كالغيرة وابن دينار وغيرهما، تولى قضاء المدينة والكوفة، روى عنه البخاري ومسلم والذهلي وإسماعيل القاضي، وألف مختصراً في قول مالك، منه نسخة بخزانة القرويين تحمل الرقم 874، وأخرى بمكتبة الشيخ حماد الأنصاري بالمدينة المنورة تحت رقم 1432¹⁶.

(ح) أبو يوسف يعقوب بن حميد بن كاسب (ت: 241هـ) مدني سكن مكة، روى عن مالك وإبراهيم بن سعد والدراوردي وابن أبي حازم والغيرة، وروى عنه أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان والزيبر بن بكار وعبد الله بن شهاب¹⁷.

(5) أخلاقه:

لا شك أن ابن سحنون تأثر بشخصية والده الذي كان الموجه الأول له، وقد عرف تلاميذ سحنون بالورع والتواضع والزهد، إضافة إلى الفقه والدين.

سأل أحد أتباع أحمد بن حنبل -241هـ- من الذين وفدوا على المغرب عن جماعة، أمضوا قسماً من الليل في قراءة وتعب وخشوع، ثم انتقلوا إلى المناظرة في مسائل العلم، وانصرفوا بعد ذلك إلى الصلاة، متعجباً: (من أصحاب من هؤلاء؟ ومن معلمهم العلم؟ أخذوا يتناظرون في العلم؟ ثم بعد ذلك وثبوا إلى قيام الليل والتهجد بأحزابهم، والله ما رأينا مثل هؤلاء قط، والله لا يصيب هؤلاء رجلاً إلا نبلاه وشرفوه فليل له: هؤلاء أصحاب سحنون¹⁸.

وروي أنه كان ذات يوم يؤلف بعض كتبه إلى أن حضرت العشاء فجاءته جاريته -أم مدام- بالعشاء فقال لها: يا أم مدام أنا مشغول عن الأكل بما أنا فيه، فلما طال انتظارها أخذت تلقمه وهو على حاله يكتب، حتى أتى على جميع الطعام، وما زال كذلك يكتب إلى أن أذن المؤذن لصلاة الصبح، فطوى أوراقه ونادى: يا أم مدام، هات ما معك من العشاء، فقالت: يا سيدي إني أطعمتك إياه، فقال: والله ما شعرت بذلك، لشغله وتعلق قلبه بما كان فيه من التأليف¹⁹.

على أن العناية بالتأليف لم تشغله عن إلقاء الدروس وبث العلم ونشر العرفان بين طبقات الطلاب، سواء بجامع عقبة أو بمقره، وزاد إقباله على التدريس لا سيما بعد وفاة أبيه،

¹⁶ - ترتيب المدارك: 347/3، الديباج: 140/1، الشجرة: 57.

¹⁷ - المدارك: 350/3.

¹⁸ - انظر المذهب التربوي عند ابن سحنون ص: 30.

¹⁹ - يصعب عقلاً تصديق هذه القصة، لأنه لا يعقل أن يقع ذلك من عالم في قيمة ابن سحنون، ولكن المرجح للمؤلف يشيرون إليها من بين طرائفه، كما في: رياض النفوس: 448/1، والمدارك: 217/4، ومعالم الإيمان: 127/2.

فإنه جلس مجلسه، وتصدى للرئاسة العلمية-وهو بما حقيق- فازدانت به البلاد، وفاق الأقران، وطبق ذكره الأوطان، وقصده الطلاب من كل حذب وصوب. ولقد جمع محمد بن سحنون إلى علمه الواسع، مكارم أخلاق وفقه نفس وخصالا رشيدة قلما اجتمعت في غيره، فخالق الناس بخلق حسن، وأتبع السيئة الحسنة، كما أمر بذلك الدين الحنيف.

روي عن الشيخ أبي الحسن بن القابسي رحمه الله قوله: استعمل خصومه العراقيون- أتباع المذهب الحنفي- في القيروان رجلا يتبع ابن سحنون يشتمه علانية إذا انفرد به، وسرا في أذنيه إذا لقيه في أصحابه، فكان ابن سحنون يرد عليه بابتسامة صبرا منه على الأذى رجاء لثواب الله عز وجل، فأثاه يوما فوجده مع أصحابه فسبه في أذنه، فلما فرغ من سبه خاف محمد من أصحابه أن يبطشوا به، فقال له: نعم وكرامة! إذا أنا تفرغت تعود إلي تقضى حاجتك إن شاء الله، وأوهم الحاضرين أنه إنما سأل في حاجة، فبلغ ذلك العراقيين، وقيل لهم أظننتم أن فلانا يسب محمد بن سحنون، وهو إنما حادثه في أذنه وسألته حاجة؟ فاتفقوا على قطع صلته، فضاع الرجل وضاع أهله وعياله، ووصل إليهم الضرر، فشكا ما نزل به إلى بعض الصالحين، فقال له: إن فعلت ما أمرك به حسنت عاقبتك وعاقبة أهلك في الدنيا والآخرة، قال وما هو؟ قال: عليك بصاحبك الذي كنت تسبه فأطلعه على أمرك، فقبل نصيحته ومضى إلى محمد بن سحنون، فوجده في مجلسه والناس حوله، فأصغى إليه بأذنه على العادة، فقال له: أصلحك الله ما جئت لهذا، وإنما جئت تائبا منييا مما كان مني إليك. فقال له اجلس. فلما انفض المجلس أخذ بيده ومضى إلى داره ودفع إليه صرة فيها عشرون دينارا عينا²⁰.

نظرا لمكانة ابن سحنون بين الناس، كانوا يستشيرونه في أمورهم، ويتوسط لإصلاح ما فسد بينهم لما عرف عنه من اللباقة والدهاء في تدبير الأمور وسعة الحيلة.

ولقد استنجد به سكان (المنستير) بعد خلافهم مع إمام مسجدهم الذي شكاهم إلى قاضي القيروان- سليمان بن عمران(ت:270هـ)- وأغراه بهم، فأرسل القاضي خلف جماعة منهم لمعاقتهم، وقبل وصولهم أرسلوا رجلا ليخبر ابن سحنون خبرهم، فلما وصله الخبر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ينهرهم ويهينهم، ولا يعرفون ما يقابلونه به. فقال للرجل: ارجع إليهم فقل لهم إذا كان غدا فادخلوا من باب أبي الربيع-أحد أبواب القيروان- وقت اجتماع الناس،

²⁰ - انظر: المعالم: 129/2، المدارك: 215/4-216، رياض النفوس: 451/1-452.

ليكن بين أيديكم رجل من أصحابكم، وليقل: يا معشر المسلمين: الدهاء لأهل المنستير، فإن القاضي سليمان بن عمران بعث وراءهم، ولا يدرون لماذا أرسل وراءهم. قال: ففعلوا ذلك فارتجت القيروان، وامتألت الأزقة بالناس وامتألت السقيفة على سليمان، وامتألت الدرب الذي يسكن فيه، فقال: ما بال الناس؟ فقال له الرجل: إن أهل المنستير قد جاءوا، وإن أهل القيروان قد أتوا إليك لينظروا ما تعمل بهم، فخاف سليمان من ذلك خوفا شديدا، وقال لحاجبه: قل لأهل المنستير ينصرفون إلى مواضعهم، فما لنا عليهم سبيل²¹.

فمما وصفه به معاصره القاضي عيسى بن مسكين: خير من رأيت محمد بن سحنون، كان جامعا لخصال من الخير، منها الورع، ومعرفة الأثر، وكثرة الإيثار، والتفقد للإخوان²².

(6) بعض مواقفه ومواعظه:

كان محمد بن سحنون دائم الموعظة، يوجه النصح والإرشاد لكل مسلم، حتى الأمراء يوصيهم بتقوى الله والعدل بين الرعية، والسهر على مصالحهم، لأنهم سيسألون عن رعيته يوم القيامة، ولقد بعث بمواعظ كثيرة إلى أمراء بني الأغلب، وأورد واحدة منها على سبيل التمثيل فقط. يقول في موعظته لأحد أمراء بني الأغلب:

« أما بعد، فإني أوصيك ونفسي بتقوى الله الذي بطاعته نيلت معالي الأمور، وارتقي إلى شرفها، وأول ما أمرك به النظر لنفسك ومعادك الذي تصير إليه، فلا دنيا لمن لا آخرة له، وبحسن المنقلب يغبط المرء، فانظر لنفسك وخذ بعناها، واحبسها في كل أمر تنازعك إليه، فغن قليل تذهب الدنيا وتأتي الآخرة، فلا ينفع نفسا إلا ما قدمت، ولا يسوؤها إلا ما عملت، وقد كان يقال: إن خير الخلطاء وأنفع الأخلاء المرشدون في المضلات، المذكرون في الغفلات، فأذكرك يوما هو منك قريب، تنزل فيه بساحتك ملائكة الرحمان، وقد أسلمك الأهل والولدان، تعطي حيث لا يقبل منك، مسلوبا منك ما في يدك منه، مودعا في بطن الأرض، ثم بعد ذلك الطامة الكبرى، يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، ثم ينشر لك كتاب فيه من عملك مثاقيل الذر والخردل، فانظر كيف أنت عند ذلك، وقد قلدت أمرا عظيما لكل الخلق فيك نصيب، قد اشترك فيك العدو والصديق، فخلص نفسك من وثاقها، بأن تملأ الأرض عدلا كما أمرك الله سبحانه، واعلم أن الذي ملكك أمر عدوك، وأدال لك عليه، وأذله بين يديك، هو الله ربك وربك وإلهك وإلهه، ومالكك ومالكه، يديل الأمور بينك وبينه في الدنيا، ثم

²¹ - انظر التفاصيل في رياض النفوس: 453/1.

²² - معالم الايمان: 124/2، المدارك: 210/4.

يتولى الحكم بينك وبينه يوم القيامة، فيأخذ منك له بمثاقيل الذر والخردل، فانظر رحمك الله وإيانا لنفسك نظر من يموت غدا، ثم يحاسب بجميع ما قدم، ولا تملك نفسك عناها، وتمهل في أمرك، وآثر الله عز وجل عند غضبك، واعمل في ذلك وكل أمرك بما يرضي الله سبحانه، فإنه يرضى عنك... وأنزل كتابي هذا منك بمنزلة من مرض أبوه فهو يسقيه من الدواء ما يكره، رجاء منفعته وهو به بار وعليه شفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته²³.

ولقد وقف بمناظراته في وجه تيار الاعتزال، الذي حاول أن يترعرع في القيروان، إذ كان أنصار هذا المذهب يقدون من المشرق لنشر مذهبهم، بعد تضيق الخناق عليهم.

ناظر يوما معتزليا يدعى أبا سليمان النحوي، وكان يقول بخلق القرآن ويذهب إلى الاعتزال، فقال علي بن حميد الوزير لمحمد: يا أبا عبد الله، إن هذا الشيخ وصلنا من المشرق، وقد تناظر معه هؤلاء، فناظره أنت، فقال محمد: تقول أيها الشيخ أو تسمع؟ فقال له الشيخ: قل يا بني، فقال محمد: أرايت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟ فسكت الشيخ ولم يجر جوابا، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشيء، فقال له محمد: كم سنة أتت عليك أيها الشيخ؟ فقال له: ثمانون سنة، فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد: قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته، فقال بعضهم يصلى عليه، وأجمعوا أنه إذا جاوز السنة لا يصلى عليه، وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت في عداد الموتى، فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع، ثم قام فسر بذلك علي بن حميد وأهل المجلس. فسئل ابن سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا فقال: إن قال إن كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر، لأنه جعل القرآن ذليلا، لأنه يذهب إلى أنه مخلوق، وقد قال الله عز وجل: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾²⁴. وإن قال إنه لا يذل، فقد رجع إلى مذهب أهل السنة، لأنه لا يذهب في هذه الحالة إلى أنه مخلوق الذي هو صفة من صفاته²⁵.

(7) تقواه وزهده:

لقد اتصف محمد بن سحنون بالصفات التي اتصف بها تلاميذ سحنون رحمه الله، فقد كان معروفا بالزهد والانصراف عن متاع الدنيا، خاشعا متذكرا الآخرة، منتظرا لها، يحيي الليل مرتلا للقرآن. ولقد ذكر الشيخ القابسي - رحمه الله - عن بعض شيوخه، قال: ذكر لي بعض

²³ - انظر القصة كاملة في رياض النفوس: 1/447-448.

²⁴ - سورة فصلت، الآية: 41-42.

²⁵ - رياض النفوس: 1/448-449.

سكان المنستير²⁶ بقصر أم الجعد²⁷، أنه خرج من بيته إلى المضياة التي في أسفل القصبة، فسمع في البيت الذي بقرب المضياة، قارئاً يقرأ في سورة الأعراف: ﴿وَقَامَتَهُمَا إِلَيْهِ لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَتَلَاَهُمَا يَغْرُرُونَ﴾²⁸ وهو يرددوها ويبيكي، وكانت ليلة شاتية، فلما كان آخر الليل، نزل يتوضأ لصلاة الصبح، فجاز بذلك البيت، فسمع الرجل يردد الآية لم يزل عنها، فوقف عند الباب يسمع قراءته، فسمع حس وقوع الدموع على الحصى، ولم يزل كذلك حتى غشيه الفجر، فخاف أن تفوته الصلاة، فأسرع بالوضوء، ووقف إزاء الباب ينتظر خروج ساكن البيت، فخرج رجل قد ستر وجهه بردائه، فطلع إلى مسجد القصبة، فاستقصى عليه حتى عرفه، فإذا به محمد بن سحنون²⁹.

كان ابن سحنون يتردد كوالده فمار كل جمعة على أحد الزهاد، ويدعى عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي، ويقول عنه: (هو رجل صالح ترجى بركته وبركة دعائه، وكان والذي رحمه الله تعالى يأتيه ويتبرك بدعائه ويلجأ إليه عند المهمات من الأمور). وذكر أبو بكر محمد بن اللباد³⁰ أن محمد بن سحنون، أتى بعد موت أبيه زائراً لهذا الرجل فسلم عليه، فرد عليه السلام، وتركه يجلس حيث انتهى به المجلس، ولم يقبل عليه حتى انصرف، فلما كانت الجمعة الآتية، انتفض ابن سحنون أصحابه في زيارة عبد الرحيم، فقالوا: رأيناه لم يقبل عليك ولا رحب بك في حين زيارتك له، فكيف تعود إليه بعد هذا؟ فقال: ليس هذا بغيتي، هو رجل صالح ترجى بركته وبركة دعائه، وكان والذي رحمه الله تعالى يأتيه ويتبرك بدعائه، ويلجأ إليه عند المهمات من الأمور. قال: فتوجه إليه محمد ثانية، فلما رآه عبد الرحيم، قام إليه قائماً على رجلبيه ورحب به وأجلسه في موضعه، ولم يزل مقبلاً عليه حتى انصرف، قال: فرجع إلى عبد الرحيم بعض أصحاب ابن سحنون فقالوا له: أصلحك الله، رأينا منك عجباً، فقال: وما هو؟ قالوا: أذاك محمد بن سحنون تلك الجمعة، فلم تقبل عليه، ثم أذاك اليوم فأقبلت عليه، فقال عبد الرحيم: والله ما أردت بذلك إلا الله عز وجل، وقبلته لثلاثة أوجه:

²⁶ - المنستير: ضاحية من ضواحي القيروان.

²⁷ - أم الجعد: حصن في ضاحية القيروان.

²⁸ - سورة الأعراف، الآية: 21-22.

²⁹ - يستبعد الاستماع إلى حس وقوع الدموع على الحصى عقلياً، ولكن المؤرخين يشيرون إلى هذه القصة في حياة المؤلف، كما في: رياض النفوس: 445/1-446، معالم الإيمان: 131/2.

³⁰ - هو محمد بن اللباد بن محمد بن وشاح، له كتاب الطهارة، وكتاب الآثار والفوائد وغيرها، ت: 333هـ، أنظر ترجمته في: الديباج: 196/2.

الأول: أنه أتى تلك الجمعة، ورأيت اجتماع الناس حوله، فخفت إن أنا أقبلت عليه، الفتنة، فعملت ما عملت لصالح حاله.

الثاني: لأجربه، فإن والده كان يزورني، فقلت لا أقبل عليه حتى أرى هل يرجع إلي أم لا؟ فإن رجع إلي علمت أن اعتقاده مثل اعتقاد والده.

الثالث: رأيت في منامي في الليلة المقبلة من تلك الجمعة التي لم نقبل عليه فيها قائلاً يقول لي: "مالك لم تقبل على ابن سحنون وهو ممن يخشى الله عز وجل؟ ففعلت ما رأيتم"³¹.

عاش ابن سحنون -رحمه الله- متقشفاً رغم أنه كان مقدماً عند أمراء بني الأغلب، ووجيهاً عند عامة الناس، مخشوشاً في حياته، متواضعاً تواضع العلماء العارفين، يروى عن تقشفه وتواضعه، ما رواه عيسى بن مسكين قال: "جادت عندنا سنة من السنين البقلة الحرشاء، وهي لسان الحمل، فحملت منه إلى محمد في طرف ردائي، ثم رميته على كتفي، فدفعته إلى الخادم وأنا نحتشم، لأنه شيء لم افعله قبل ذلك، فلما رآه محمد خرج إلي فقال لي: "جتني بهذا ولم تصح لي من وراء الدرب"، وفرح به وأوصاني أن أكثر له منه، فكنت أحمل إليه منه، وربما ملأت له خرجاً منه وأرسل به إليه على حماري"³².

(8) رباطه وجهاده ضد الغزاة:

تمثل محمد بن سحنون صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا يحرصون على الجهاد والمرابطة على ثغور المسلمين، فكان يخرج بين فترة وأخرى من القيروان إلى قصر الطوب³³ للمرابطة مع الجند، ويشارك في القتال ضد الروم، الذين كانوا يغيرون ليلاً في الغالب على إفريقية من جهة البحر.

حدث ذات ليلة كان فيها ابن سحنون مرابطاً، أن نزل (قطاع الروم بساحل ذلك البر فضربوا على الساحلين وعلى تلك المنازل، فتصايح الناس، ولم يكن مع محمد بن سحنون إلا بغل، فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الروم من المسلمين بغيتهم، فتقلد بسيف وأخذ رمحاً ودرقة³⁴، وركب ذلك البغل الذي كان معه، واجتمع إليه الناس في جماعة من المرابطين، ومن يقرب من القصر من أهل البوادي التي حوله، وتماذى بمن معه إلى الروم،

³¹ - انظر معالم الإيمان: 128/2-129، رياض النفوس: 445/1.

³² - انظر رياض النفوس: 454-455.

³³ - قصر الطوب: أحد الرباطات المشهورة بالساحل التونسي. رياض النفوس: 446/1.

³⁴ - درقة: من درق يدرك درقاً: ضرب من الترس، الواحدة منها: درقة. والجمع درق وأدراق ودراق. وتتخذ من الجلود. اللسان: 333/4.

فوجدتهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم، فكبر عليهم هو ومن معه، وقد ناشبهم القتال، فهزمهم الله على يديه، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هارين، فحلف محمد بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلا بفرس³⁵.

(9) تلاميذه:

ذكرت أغلب كتب التراجم أن لابن سحنون تلاميذ كثيرين أخذوا عنه، وفيما يلي ذكر لأبرزهم:

(أ) عيسى بن مسكين: أصله من العجم، كان من أهل الفقه والورع، وكان ثقة مأمونا، صالحا فاضلا، وكان محمد بن سحنون يأمره أن يؤذن ويقيم ويصلي، فإذا استفتي محمد قال: أفتنه يا أبا موسى، نظر إليه محمد بن سحنون يوما فقال: يا أهل المسائل، هذا أفضلكم وخيركم وإمامكم³⁶.

(ب) أبو الربيع: سليمان بن سالم الكندي القطان، الفقيه المعروف بابن كحالة، كان من أهل الفقه البارعين، كثير الرواية، حسن الأخلاق، بارا بمن يأتي إليه للسماع عليه، ولاءه ابن طالب قضاء بجاية، وولاه عيسى بن مسكين مظالم القيروان، ثم قضاء صقلية، فسار فيها بسيرة العدل إلى أن مات، وعنه انتشر المذهب المالكي بما وله تأليف في الفقه يعرف بالسليمانية³⁷.

(ج) أبو محمد سعيد بن حكمون: كان من أهل الفقه والورع والرواية، روى كتاب الزهري لسحنون عن محمد بن سحنون عن أبيه، وكتاب الورع لابن عبدوس³⁸.

(د) حبيب بن نصر بن سهل التميمي: سمع من سحنون ومن ابنه محمد. قال أبو العرب: وكان فقيها ثقة حسن الكتاب والتقييد. وقد أذن له سحنون أن يقضي في عشرين دينارا فأقل، توفي سنة: 287هـ³⁹.

(هـ) أبو إسحاق محمد بن القاسم: المعروف بابن القرطي وابن شعبان، كان من حفاظ المذهب له: "الزاهي في الفقه" و"أحكام القراءان" و"كتاب مختصر ما ليس في المختصر" و"كتاب مناقب مالك والرواة عنه"⁴⁰.

³⁵ - رياض النفوس: 1/446-447.

³⁶ - انظر المدارك: 331/4-332-334، شجرة النور الزكية ص: 72.

³⁷ - انظر: شجرة النور ص: 71، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: 206/2، المدارك: 356/4.

³⁸ - انظر معالم الإيمان: 2/358، شجرة النور، ص: 81.

³⁹ - انظر: المدارك: 369/4-370، دراسات في مصادر الفقه المالكي ص: 168-170.

⁴⁰ - انظر: الديباج ص: 248، الفكر السامي: 2/110، ترتيب المدارك: 5/274.

(10) مكانته العلمية:

نال محمد بن سحنون نصيبه من ألقاب الشناء والإشادة بمقامات شخصيته العلمية عند الذين ترجهوا له وهم كثيرون، فقد كان علما مبرزاً في علوم شتى، ورعا فاضلاً، جمع شخصه شيم التواضع والحزم والذكاء وقوة المناظرة مع استقامة في اللسان وفصاحة القلم، بالغ مترجموه في الشناء عليه.

قال أبو العرب التميمي القيرواني: كان إماماً في الفقه، ثقة، عالماً بالآثار، صحيح الكتاب، لم يكن في عصره أحقق بفنون العلم منه فيما علمنا، وكان من أطوع الناس في الناس، سمحاً كريماً، نفاعاً للناس إذا قصد⁴¹.

وقال ابن حارث: كان محمد بن سحنون في مذهب مالك من الحفاظ المتقدمين، وفي غيره من المذاهب من المنظرين المتصرفين، وكان عالماً مبرزاً، وكان كريماً في نفسه، جواداً بماله وجاهه، ويصل من يقصده بالعشرات من الدنانير، ويكتب لمن يعنى به إلى الكور، فيعطى الأموال الجسيمة، مقدماً عند الملوك، وجيهاً عند العامة، فهاضاً بالأثقال، واسع الحيلة، جيد النظر عند الملمات، وكان قد فتح له باب التأليف، وجلس مجلس أبيه بعد موته⁴².

وقال يحيى بن عمر: كان من أكثر الناس حجة، وألقنهم بها وكان يناظر أباه، وكان يسمع بعض كتب أبيه في حياته، يأخذها الناس عنه قبل خروج أبيه، فإذا خرج أبوه قعد مع الناس يسمع معهم من أبيه⁴³.

وقال حمديس القطان: رأيت العلماء بمكة والمدينة ومصر، فما رأيت فيهم مثل سحنون، ولا مثل ابنه بعده⁴⁴.

أما محمد بن عبد الحكم، فقد قال في حقه بعد أن تصفح كتاباً من كتبه: هذا رجل يسبح في العلم سبحاً.

(11) وفاته:

روى غير واحد من المترجمين لابن سحنون، أن أباه كان إذا نظر إلى ابنه يقول: أخاف أن يكون عمره قصيراً، وذلك فراسة منه، فكان مع قدر الله كما حدس، فتوفي ابن سحنون -

⁴¹ - ترتيب المدارك: 211/4، رياض النفوس: 443/1.

⁴² - معالم الإيمان: 124/2، ترتيب المدارك: 213/4.

⁴³ - ترتيب المدارك: 405/4، المعالم: 124/2.

⁴⁴ - المدارك: 205/4.

رحمه الله - سنة 256هـ وعمره أربعة وخمسون عاما، بعد موت أبيه بست عشرة سنة، وكانت وفاته بالساحل، وأتي به إلى القيروان، فهرع أهلها لدفنه، وغلقت الأسواق والكتاتيب تعظيما له، وصلى عليه إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، ودفن بباب نافع بمقربة من ضريح أبيه، إذ بينهما خطوات يسيرة، وضرب على قبره قبة، وضربت الأخبية حول قبره، وأقام الناس فيها شهورا كثيرة، حتى قامت الأسواق والبيع والشراء حول قبره من كثرة الزوار، حتى خاف من ذلك ابن الأغلب، وبعث إلى ابن عم سحنون، المعروف بابن لبدة، ففرق الناس⁴⁵.

قال الدباغ في المعالم: هو قبلة أبيه، بينه وبين أبيه خطوات، وعند رأسه سارية طويلة، وهو مزار يعرفه الخاص والعامة⁴⁶.

ولقد رثاه شعراء عصره بمراث عديدة تبلغ ثلاثمائة قصيدة، فمن ذلك قول محمد بن داود وكان من أصحابه⁴⁷:

أذُرُ الدموع على أغر محجل	بسطت له أيدي المنون حبالها
ما ضرها لو امتعت بمحمد	هيئات رب العالمين قضى لها
يا عين جودي بالدموع على الذي	نشرت عليه المكرمات ظلالها
ولقد رأيت الأرض يوم رأيت	فوق المناكب زلزلت زلزالها
قل للمنية بعد موت محمد	تكسو الخليفة بعده أجالها
يا صاحب القبر الذي ليس البلى	ورثت نفسي همها وخبالها
ما رأت تعطيل مسجدك الذي	بإزاء قبرك غالها ما غالها
ذاك المحل الأرحب العالي إذا	أعطى البريئة ربها أعمالها

وقوله:

لقد مات رأس العلم واتهد ركنه	وأصبح من بعد ابن سحنون واهيا
فمن لرواة العلم بعد محمد؟	لقد كان بحرا واسع العلم طاميا
ومن لرواة الفقه والرأي والحجى؟	وقد أصبح الفضال في التراب ثاويا

ومنها:

⁴⁵ - انظر المدارك: 220/4، المعالم: 134/2، رياض النفوس: 456-458

⁴⁶ - معالم الإيمان: 135/2.

⁴⁷ - انظر المعالم: 135/2، المدارك: 220/4-221.

بني لك سحنون من المجد مفخرا
وأصبحت مخصوصا بكل فضيلة
وكنت لأهل العلم حصنا وملجأ
وقال أحمد بن أبي سليمان⁴⁸:
ألا فابك للإسلام إن كنت باكيا
نعت إمام العالمين محمدا
تثلم حصن الدين وأهد ركنه
إمام حباه الله فضلا وحكمة
وزوده التقوى وبصره الهدى
ومنها:
لقد فجع الإسلام موت محمد
بكى كل من بالغرب عند وفاته
وأصبح منه جانب العين خاليا
وحق لمن بالغرب أن يك باكيا

ثانيا: آثاره العلمية

اتفقت كلمة معاصريه من المؤرخين، أن محمد بن سحنون، كان من أكثر أهل زمانه تأليفا، قال عنه ابن حارث: كان كثير الوضع للكتب، غزير التأليف، ثم قال: كان فتح الله عليه باب التأليف⁴⁹.
وقال القاضي إسماعيل بن إسحاق في حقه وهو يفخر على أهل العراق: عندنا من ألف في مسائل الجهاد عشرين جزءا، وهو محمد بن سحنون⁵⁰.
وقال المالكي: لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه، ألف في ذلك كتب كثيرة تنتهي إلى نحو مائتي كتاب في جميع العلوم وفي المغازي والتاريخ⁵¹.

⁴⁸ - انظر ترتيب المدارك: 221/4.

⁴⁹ - طبقات علماء إفريقية ص: 129.

⁵⁰ - ترتيب المدارك: 206/4.

⁵¹ - رياض النفوس: 443/1.

أقول: والمقصود بالكتب هنا، أجزاء في أبواب من الفقه أو غيره، كما تقول: كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، وما أشبه ذلك، وهذا ما رجحه الدباغ في المعالم⁵². والذي وقفت عليه من أسماء مؤلفات ابن سحنون، على حسب ما أمكنني حصره، معتمدا في ذلك على كتب التاريخ والتراجم والجامع الفقهي ما يلي:

1- كتاب الجامع: وهو أكبر تصانيفه، جمع فيه فنون العلم والفقه وهو يزيد عن مائة جزء، منها: عشرون في السير، وخمسة وعشرون في الأمثال، وعشرة في آداب القضاء، وخمسون في الفرائض، وثمانية في التاريخ وطبقات الرجال، والباقي في فنون أخرى، وهو عبارة عن موسوعة شاملة للعلوم الرائجة في ذلك العصر. والكتاب كما يبدو من خلال أجزائه، عبارة عن دائرة معارف للعلوم المنتشرة في ذلك العصر.

2- المسند في الحديث وهو كبير جدا.

3- رسالة في السنة.

4- كتاب الإباحة.

5- كتاب تحريم الخمر، ولا ندري إذا كان هذا الكتاب، هو نفسه كتاب تحريم النبيذ، فقد ذكر ابن فرحون إضافة إلى كتاب تحريم الخمر، كتاب تحريم النبيذ⁵³.

6- رسالة فيمن سب النبي ﷺ.

7- رسالة في أدب المتناظرين، وهي من جزءين.

8- كتاب تفسير الموطأ، ويتألف من أربعة أجزاء.

9- كتاب الحجة على القدرية.

10- كتاب الحجة على النصارى.

11- كتاب الرد على الفكرية.

12- كتاب الورع.

13- كتاب الإيمان والرد على أهل الشرك.

14- كتاب الرد على أهل البدع، ويتألف من ثلاثة أجزاء.

15- كتاب طبقات العلماء، ويتألف من سبعة أجزاء. اعتمد عليه ابن الدباغ - كما

ذكر عبد الرحمن عثمان حجازي⁵⁴ - في كتابه "معالم الإيمان" للتأريخ للعلماء الذين نزلوا

⁵² - ينظر المعالم: 123/2.

⁵³ - الديباج المذهب ص: 236.

القيروان حتى القرن السابع الهجري، فقد قال: (ونحن نذكر من نزلها منهم معتمدين في ذلك على ما نقله الرواة مثل... ومحمد بن سحنون، وأبي سعيد بن يونس... وسنروي عن كل واحد منهم حديثاً مسنداً تبركاً باتصال السند بهم، والرواية عنهم رضي الله عنهم وعن أتباعهم⁵⁵).

16- كتاب الأشربة وغريب الحديث، وهو من ثلاثة أجزاء.

17- كتاب الإمامة، وهو جزءان، وقد كتبه ابن سحنون وهو في مصر، وأهدي إلى الخليفة ببغداد، وهو من أنفس كتبه، كما قال عيسى بن مسكين⁵⁶.

18- كتاب الجهاد، ويتألف من عشرين جزءاً. وقد مدحه القاضي إسماعيل بن إسحاق بعد أن ذكر أمامه ما ألفه العراقيون من كتب فقال: عندنا من ألف في مسائل الجهاد عشرين جزءاً، وهو محمد بن سحنون⁵⁷.

19- أحكام القراءان.

20- كتاب التاريخ، وهو كتاب آخر غير كتابه الجامع، ويتألف من ستة أجزاء.

21- شرح أربعة كتب من مدونة سحنون، التي كتبها في شرح المذهب المالكي

وتوضيحه.

22- كتاب آداب القاضي.

وكل هذه الكتب مفقودة أو مجهول محل وجودها، والذي بلغ إلينا:

23- أجوبة محمد بن سحنون، رواية محمد بن سالم القطان عنه. قال العلامة الشنقيطي

عنه في رحلته إلى الأندلس: وهو كتاب لا نظير له في الفقه. ونسخه ماثورة في أغلب خزانات العالم⁵⁸.

24- آداب المعلمين⁵⁹، وقد حققه عبد الرحمن عثمان حجازي، كما اعتنى بنشره

وتصحيحه والتعليق عليه: حسن حسني عبد الوهاب.

ومجمل القول أن فضل ابن سحنون لم يكن منحصرًا فيما ألف من الكتب القيمة،

الكثيرة العدد والفائدة، في عصر كانت الأمة محتاجة فيه إلى تدوين معلوماها، وسن قوانينها

⁵⁴ - المذهب التربوي عند ابن سحنون ص: 44.

⁵⁵ - معالم الإيمان: 70/1.

⁵⁶ - رياض النفوس: 1/445، المعالم: 2/127.

⁵⁷ - ترتيب المدارك: 4/206.

⁵⁸ - آداب المعلمين ص: 14.

⁵⁹ - انظر المدارك: 4/207، المعالم: 2/123، رياض النفوس: 1/443.

ونظمها الاجتماعية، وضبط الفقه بقواعد راسخة ثابتة، بل تجلى أيضا في وقوفه موقف أبيه، وتأييده لتعاليمه، وشرحها ونشرها بين الناس، والسعي في توحيد كلمة سكان شمال إفريقيا، وذلك بغرس آراء أهل السنة، وبالأخص آراء أهل المدينة - ونقصد بذلك مذهب مالك - في سائر أنحاء المغرب، حتى صار اسم مالك بن أنس عند أهل إفريقيا مقرونا باسم آل سحنون، والفضل في ذلك عائد إلى هاذين العالمين المجتهدين، الإمام سحنون وابنه محمد.

المبحث الثاني

دعوى انتحال كتاب "الأجوبة"

إن هذا الكتاب الذي تحملت مسؤولية تحقيقه، أثار جدلا واسعا بين فقهاء المالكية، بين مهتم بالكتاب ناقل عنه، وبين معرض عنه منكر أن يكون منسوباً لابن سحنون، خاصة المتأخرين منهم، والمنتمين للمغرب الأقصى على وجه الخصوص، ولإزالة بعض هذه الغشاوة التي جثمت على الكتاب وصاحبه، قررت اقتحام هذا الميدان، رغم ما في ذلك من مصاعب، مستعينا بالله رب العالمين، وسأتناول صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف في الفرع الأول، وأدلة القائلين بالانتحال وعدم الاعتماد في الفرع الثاني، ثم مناقشة وترجيح وبه أختتم.

الفرع الأول: صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف

1- توثيق صحة انتساب الكتاب إلى المؤلف:

أجمعت كل النسخ التي اطلعت عليها على نسبة الكتاب إليه، وهذا نص عناوينها:

أ- نسخة مكتبة الأسكوريال بمدريد رقم: 1157.

جاء في بدايتها: «كتاب فيه أجوبة الإمام الفقيه العالم الأوحى أبي عبد الله محمد بن سحنون رضي الله عنه...».

ب- نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم 1841.

وهي مبتورة الأول، ولكن في مقدمتها تقييد جاء فيه: «هذه أسئلة محمد بن سالم محمد بن سحنون، ولما وقفت عليها، أردت تقييدها مع جهل مقيدها، وعلم السائل واجيب لنقص بأولها...».

ج- نسخة خزانة سيدي عبد الله كنون ضمن مجموع، جاء في بدايتها: « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، قال الشيخ الفقيه البليغ الفصيح اللغوي النحوي أبو عبد الله محمد بن سالم الأشعري رحمه الله... ويسمى بالدر المكنون في أجوبة ابن سحنون.

الحمد لله واسع الجود والعطاء... وبعد فإني ألفت هنا أجوبة عن الشيخ الأجل الأكمل أبي عبد الله محمد بن سحنون حين كنا نسأله عن العلوم والذخائر، فألفت هنا أجوبته وبالله أستعين».

د- نسخة الخزانة الحسنية رقم 6290، جاء في بدايتها: «كتاب فيه أجوبة أبي عبد الله محمد بن سحنون رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به آمين».

هـ- نسخة دار الكتب التونسية رقم: 1815. جاء في بدايتها: «كتاب فيه أجوبة الإمام والعالم الأوحى أبي عبد الله محمد بن سحنون رحمه الله».

و- نسخة القرويين رقم: 1384/4.

جاء في بدايتها: « قال الشيخ الفقيه العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن سالم رضي الله عنه ونفعنا به و بأمثاله. سألت محمد بن سحنون...».

ز- مصورة خزانة كلية الشريعة بأكادير.

جاء في مقدمتها: «الحمد لله... هذه أجوبة الشيخ الإمام العالم الفقيه الأوحى... أبي عبد الله محمد بن سحنون رضي الله عنه».

ح- نسخة خزانة تدسي رقم: 412 ضمن مجموع: ر، مبتورة الأول، وجاء في آخرها: « اعلم وفقك الله لما يحبه ويرضاه أيها الناظر في هذا الكتاب المسمى بأجوبة محمد بن سحنون رضي الله عنه».

ط- نسخة من خزانة خاصة بإفران، جاء في مقدمتها: « فهذا كتاب أجوبة الشيخ الإمام العالم الفقيه الأوحى القدوة أبي عبد الله محمد بن سحنون رضي الله عنه ورحمنا بعده».

ي- نسخة خزانة المجلس العلمي بتزيت رقم: 20 ضمن مجموع. جاء في مقدمتها: « بسم الله الرحمان الرحيم، كتاب فيه أجوبة الإمام الفقيه العالم الأوحى محمد بن سحنون رضي الله عنه».

ك- نسخة خزانة تمكروت: جاء في آخرها: « اعلم وفقك الله لما يحبه ويرضاه، أن هذا الكتاب المسمى بأجوبة ابن سحنون، قد اعتنى بالبحث والسؤال عنها وجمعها وتأليفها... ». أما كتب التراجم والتاريخ وغيرها من الكتب التي تعرضت لترجمة محمد بن سحنون، فلم تختلف بدورها في نسبة هذا الكتاب إليه.

أ- جاء في كتاب العمر أثناء الحديث عن مؤلفات ابن سحنون الكثيرة:
- أجوبة ابن سحنون، وهي إجابات عن أسئلة وجهها إليه فقيه يدعى محمد بن سالم في مختلف أبواب الفقه⁶⁰.

ب- وفي دراسات في مصادر الفقه المالكي: « ولم يبق من مؤلفات ابن سحنون الغزيرة إلا أربع قطع... الرسالة السحنونية، وهي أسئلة وأجوبة في فروع الفقه... »⁶¹.

ج- وفي الأعلام للزركلي: « من كتبه: آداب القضاء... وأجوبة محمد بن سحنون-خ في الفقه... »⁶².

د- وفي دراسة وتحقيق "بوطليحة": له مؤلفات كثيرة منها: آداب المعلمين (مطبوع)، والرسالة السحنونية، ورسالة في الفقه المالكي⁶³.

2- تسميته:

أما تسميته: فلم يختلف الناقلون في اسم هذا الكتاب، إذ نجد جميع نسخ المخطوط، وكذا كتب التراجم تسميه: أجوبة ابن سحنون، اللهم ما وجد على صدر الصفحة الأولى من مخطوط سيدي عبد الله كنون بطنجة، إذ فيه: «... ويسمى بالدر المكنون في أجوبة ابن سحنون... ».

3- محتويات الكتاب:

يعتبر كتاب "أجوبة ابن سحنون" من أهم الكتب التي ألقت في فقه النوازل، ويظهر من خلال محتوياته أنه يشمل أغلب الموضوعات الفقهية، خاصة فقه المعاضات والتبرعات والعبادات، وهذه أهم الفصول التي تضمنها الكتاب:

1- فصل الشهادة.

⁶⁰ - كتاب العمر ص: 592.

⁶¹ - دراسات في مصادر الفقه المالكي ص: 107-162.

⁶² - الأعلام: 114/6.

⁶³ - بوطليحة ص: 103، الهامش: 3.

- 2- فصل القضاء.
- 3- فصل النكاح.
- 4- فصل الطلاق.
- 5- فصل البيوع.
- 6- فصل الحيازات.
- 7- فصل الدعاوى.
- 8- فصل السرقة والخصومات.
- 9- فصل السرقة والحراة.
- 10- فصل الأطعمة.
- 11- فصل الإيمان.
- 12- فصل العداء والجنايات.
- 13- فصل الصيد والذكاة.
- 14- فصل السؤال عن الرعاة.
- 15- فصل الأحباس والهبة والصدقة.
- 16- فصل الأصول وإحياء الموات والحراث.
- 17- فصل الدماء.
- 18- فصل السؤال عن اللقطة والضوال.
- 19- فصل الصلاة والوضوء.
- 20- فصل الصوم.
- 21- فصل جامع لمسائل مختلفة غير متجانسة.

4. النقول عن الكتاب:

- نقل عن أجوبة ابن سحنون مجموعة من الفقهاء والمؤلفين الذين جاءوا من بعده، منهم:
- 1- الشيخ خليل⁶⁴، الذي نقل عنه في كتاب التوضيح في مواضع كثيرة، وقد عد محقق التوضيح نوازل ابن سحنون ضمن أهم مصادر كتاب التوضيح⁶⁵.

⁶⁴ - هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب الجندي الكردي المصري، كنيته أبو المودة، ويلقب بأبي الضياء، له كتب عديدة أهمها كتاب "التوضيح" و"المختصر". توفي سنة: 776هـ. الديباج: 354/1، معجم المؤلفين: 113/4، الفكر السامي: 286/3.

2- ابن سهل⁶⁶ في نوازل المسماة: "الإعلام بنوازل الأحكام"، وهو كتاب معتمد يعول عليه الكثيرون من الحكماء وشيوخ الفتوى⁶⁷، وقد وجدت في كثير من المراجع أن ابن سهل ينقل عن ابن سحنون، ومثال ذلك ما في التبصرة لابن فرحون «ومن أحكام ابن سهل أيضا قال: وفي نوازل ابن سحنون...»⁶⁸، وما في وثائق الفشتالي: «وحكى ابن سهل عن ابن سحنون عن أبيه وعن ابن المواز أنه إذا أقر للغائب بالدين لا يقتضى بإقراره...»⁶⁹، وما في "معين الحكماء لعبد الرفيع التونسي" الذي أشار إلى أن عيسى بن سهل ينقل عن ابن سحنون في أجوبته⁷⁰.

3- القاضي عياض⁷¹ في "مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام" في عدة مواضع منها:
- قوله: «...أن محمد بن سحنون سئل عن هذه اليمين فقال: اختلف فيها شيوخنا المتقدمون...»⁷².
- قوله: «قال محمد بن سحنون: وأنا أقول إن قال الخالف جميع الأيمان تلزمي، فيلزمه طلاق امرأته ثلاثا...»⁷³.
كما نقل عنه في التنبيهات في مواضع كثيرة، ولكنه لم يشر ولو مرة إلى كتاب الأجوبة، وإنما يقول: وفي كتاب ابن سحنون، ولكن تبين بعد الاطلاع على التنبيهات أن القاضي عياض - رحمه الله - نقل من أجوبة ابن سحنون مرات عديدة، وهذه بعض الأمثلة:
+ نقل عنه في مسألة الدية والقسامة⁷⁴.

65- انظر: رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا للأستاذ السافري محمد المدني، التي ناقشها بكلية الشريعة بأكادير، تقديم وتحقيق - كتاب البيوع من كتاب التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب القرعي - ج: 64/1.
66- ابن سهل: هو أبو الأصم القاضي عيسى بن سهل الأسدي القرطبي، الفقيه النوازلي المشهور، كان يستظهر كتباً وأمهات عن ظهر القلب، ولد سنة 413هـ، أخذ عن ابن عتاب وابن القطان، وأجازه ابن عبد البر. توفي سنة 486هـ. بغية المتلمس: 403، الديباج: 70/2، الشجرة: 122.
67- توجد نسخ من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط، والخزانة الحسنية، وقد اشتغل بتحقيقه أخيراً الأستاذ القطري عبد العزيز الخلفي. انظر: شجرة النور الزكية ص: 122، الصلة: 197/1، الديباج: 70/2.
68- تبصرة ابن فرحون: 96/1.
69- انظر وثائق الفشتالي، تقديم وتحقيق الأستاذ إبراهيم بيروك ص: 81.
70- انظر معين الحكماء على القضايا والأحكام ص: 128.
71- عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (476-544هـ)، الفقيه الأصولي المحدث البصير بالأحكام والشروط، ألف تأليف منها: إكمال المعلم في شرح مسلم وغيره. الديباج ص: 168، شجرة النور ص: 140، الفکر السامي: 223/2.
72- مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام ص: 297.
73- مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام ص: 298.
74- التنبيهات المستنبطة على المدونة والمختلطة والتي حققها الدكتور عبد النعم حميتي في إطار أطروحة الدولة بكلية الشريعة، أكادير ص: 393.

+ نقل عنه في مسألة الشركة في الدار، وكذا عزل القاضي، وكذا في مسألة الغصب والصدقة، وجناية العبد⁷⁵.

4- الفشتالي⁷⁶ نقل عنه في "وثائقه" في مواضع كثيرة⁷⁷.

5- ابن عبد الرافع التونسي المتوفى: 733هـ الذي نقل عنه في كتابه: "معين الحكام على القضايا والأحكام" في أكثر من موضع، وهذا مثال لذلك، ففي ص: 168 نقل عنه قوله: « لا يجوز نكاح العبد للحرّة العربية »، كما عد أجوبة ابن سحنون مصدرا مهما من المصادر التي اعتمدها في تحقيقه، ونجد ذلك واضحا في فهرس المراجع والمصادر.

6- داود التلملي الجزولي⁷⁸ في "مختصر أمهات الوثائق وما يتعلق بها من العلائق"، وقد أشار محقق هذه الوثائق إلى اعتماد المؤلف على ابن سحنون فقال: « أما بخصوص فقه الوثائق فإن المؤلف قد اعتمد في ذلك على مصادر الفقه المالكي ...، وكتب في النوازل كنوازل ابن سحنون... ».

والمفحص لهذا الكتاب يجد أن داود التلملي قد نقل حرفيا عن ابن سحنون أغلب الأجوبة التي نقلها في كتابه مصرحا بقوله: " وفي أجوبة ابن سحنون"، وأذكر منها على سبيل التمثيل فقط:

في باب الشهادات: نقل أسئلة وأجوبة كثيرة عن ابن سحنون ثم من لا تجوز شهادتهم⁷⁹. ومظاهر التهمة في الشهادة⁸⁰.

في باب القضاء: نقل أسئلة كثيرة وأجوبتها عن ابن سحنون⁸¹، ونقل عنه في باب الحيازات⁸²، والأيمان والضمان⁸³، وفي الصيد والذكاة⁸⁴، والرعاة والدماء، واللقطة والضوال، وما إلى ذلك.

⁷⁵ - انظر الصفحات: 542-710-800-901 من الأطروحة.

⁷⁶ - الفشتالي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الملك بن شعيب الفشتالي، الفقيه الحنفي الخطيب الفرضي المؤثق، قاضي فاس، توفي سنة 779هـ. شجرة النور ص: 235، جذوة الإقباس: 1/234.

⁷⁷ - انظر وثائق الفشتالي، تقديم وتحقيق: الأستاذ إبراهيم بيروك ص: 81-101-119-309.

⁷⁸ - هو داود بن محمد بن عبد الحق التلملي التتلي الجزولي الفقيه العالم المؤثق، الصالح الزاهد، توفي سنة 899هـ. المعسول: 169/6، مناقب الحضيكي: 1/214، خلال جزولة: 2/12.

⁷⁹ - انظر: رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للدكتور البوشواري محمد: ج2/462-463.

⁸⁰ - انظر: رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للدكتور البوشواري محمد ج: 1/265 إلى 279.

⁸¹ - مختصر أمهات الوثائق ج: 1/280-300.

⁸² - انظر رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للدكتور البوشواري محمد: ج2/475-481.

⁸³ - انظر رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للدكتور البوشواري محمد ج: 491-503.

⁸⁴ - انظر رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للدكتور البوشواري محمد ج: 2/504-506.

7- ابن شاس⁸⁵ في كتابه "عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة"⁸⁶ نقل عنه في أكثر من خمسين موضعاً، وهذا مثال واضح في نقل هذا العالم الجليل من أجوبة ابن سحنون، ففي الفصل الثاني "في وجوه التحمل والأداء" قال: «...وهو نفس ما حكاه محمد بن سحنون في أجوبته، قال: قلت: رأيت الشاهد إذا طلب المشهود له بتأدية شهادته إلى موضع تدركه فيه المشقة والتعب، فأعطاه صاحب الشهادة دابة يركبها؟ قال لا يقدح ذلك في شهادته، قلت: فإن أنفق عليه صاحب الشهادة في ذهابه ورجوعه؟ قال لا بأس بذلك أيضاً، ولا يقدح في شهادته.

قال محمد: وأنا أقول لمن كان على مسافة يوم أو أقل من ذلك فلا له أن يأكل طعام صاحب الشهادة، فإن فعل كان ذلك جرحاً في شهادته، وإن كانت مسافة يومين أو ثلاثة، فلا بأس أن يأكل طعام صاحب الشهادة»⁸⁷.

8- الونشريسي⁸⁸: في "المعيار"، وقد نقل عنه في أغلب أجزاء الكتاب، إذ نجده يعتمد على فقه ابن سحنون كثيراً، فمرة يقول: "وفي كتاب ابن سحنون" ومرة يقول: "قال محمد"، ومرة يقول: "وذكر ابن سحنون"، ولقد وجدته اعتمد على ابن سحنون في أكثر من ثمانين موضعاً، في أحد عشر جزءاً⁸⁹.

9- التونسي⁹⁰: وجدت وأنا بصدد البحث في إحدى الخزانات الخاصة بخطوطه ضمن مجموع يحتوي على نوازل ابن هلال، ووثائق ابن سلمون وأجوبة التونسي، ولما تفحصت هذه النوازل التي لا تتجاوز عدد صفحاتها 56 صفحة، ولم تكن لها مقدمة ولا حتى تاريخ النسخ، وجدته ينقل عن ابن سحنون، وترددت كثيراً هل هذه الأجوبة للتونسي أي إسحاق؟ وهل له أجوبة فعلاً، ولكني اطلعت في المعالم للمالكي أنه قال: «كان فقيهاً صالحاً موصوفاً بالفهم

⁸⁵ - هو أبو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عاشتر بن عبد الله محمد بن شاس الجذامي السعدي، تقلد منصب الإفتاء في عهده وله مؤلفات عديدة أهمها "عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة. توفي سنة 616 هـ، وفيات الأعيان: 61/3، الفكر السامي: 230/2.

⁸⁶ - انظر الجواهر لابن شاس - دراسة وتحقيق - الدكتور: حميد بن محمد لحمر، أستاذ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس.

⁸⁷ - انظر الجواهر لابن شاس: 1052/3.

⁸⁸ - الونشريسي: هو الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم القاسي، الإمام العالم العلامة المحقق، ألف كتاب "المعيار" وتعليق على ابن الحاجب القرعي، وكتاب "شرح على وثائق الفشتالي توفي سنة: 914 هـ. شجرة النور ص: 274-275.

⁸⁹ - انظر المعيار، تحرير جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، طبع ونشر وزارة الأوقاف.

⁹⁰ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن إسحاق التونسي الإمام الفقيه الأصولي، الحافظ المحدث، كان مقدماً في أجوبته، تفقه بأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران القاسي، له كتاب "التعليق" على المدونة، وله تعليقات على كتاب ابن المواز: 443 هـ. انظر: المعالم: 177/3، المدارك: 58/8-68، الشجرة ص: 181.

مقدما في أجوبته...»⁹¹، وتبين لي فيما بعد أن هذه الأجوبة التي اطلعت عليها⁹² للتونسي فعلا، إذ لها نسخ كثيرة في أقطار سوس، فإنه ينقل عن ابن سحنون، فقد نقل عنه في فصل الصيد والذكاة، ومن أمثلة ذلك قوله: «ومن سؤال محمد بن عن محمد بن سحنون قال: سألت عمن ذبح شاة فأصابه رش دم أيغسله أم لا؟. ونقل عنه في فصل النكاح، ومن أمثلة ذلك قوله: «مسألة لابن سحنون فيمن له على المرأة دين فقالت له زوجني بذلك الدين... ورضيت بذلك مهرًا أنه يجوز. ونقل عنه في فصل الأطعمة» ومن أمثلة ذلك «ومن كتاب سؤالات محمد بن سالم لمحمد بن سحنون وسألته عن الأئمة الظالمة الجائرة المحاربة....» كما نقل عنه في فصل الشهادات وفي غيرها من فصول الكتاب.

الفرع الثاني: أدلة القائلين بانتحال وعدم الاعتماد

إن التحريات المتواضعة التي قمت بها، تظهر أن العلماء الذين ذهبوا إلى انتحال الكتاب، هم من العلماء المتأخرين جدا، ومن الذين قالوا بهذا الرأي على الخصوص: * محمد النابغة بن عمر الغلاوي: المتوفى سنة: 1245هـ - 1828م⁹³، وقد أشار إلى ذلك في نظم سماه: "بوطليحي"⁹⁴، وقد صرح الشاعر الغلاوي في بداية قصيدته أنه لم يأت بجديد في تلك القصيدة، وإنما حاول نظم ما نشره الهلالي⁹⁵ في كتاب سماه "نور البصر في شرح خطبة المختصر" وقال الغلاوي مبينا ذلك:

وآذنت براءة استهلال بعقد مانشره الهلالي⁹⁶

وقال في موضوع أجوبة ابن سحنون وغيرها من الكتب التي يرى أنها لا يعتمد عليها تحت عنوان:

"فصل في الكتب والأقوال الشيطانية الليطانية"⁹⁷

هذا بيان كتب الشيطان ومامن الأقوال لليطان⁹⁸

⁹¹ - المعالم: 177/3.

⁹² - هذه الأجوبة موجودة في إحدى الخزانات الخاصة بقرية أيت هو والتي توجد في عمالة شتوك أيت باها في الجنوب المغربي، وعندي مصورة منها.

⁹³ - انظر ترجمته في بوطليحية - تحقيق: ذبيح بن البراء - ص: 23-32.

⁹⁴ - هذه المنظومة حققها الأستاذ يحيى بن البراء سنة: 1422هـ - 2002 م

⁹⁵ - الهلالي: هو أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن رشيد بن محمد بن عبد العزيز السجلماسي المعروف بالهلالي، من أحفاد أبي إسحاق إبراهيم بن هلال، صاحب النوازل. ولد 1113هـ بسجل ماسة، ثم رحل إلى مكة، ثم عاد إلى موطنه ومات سنة: 1175هـ.

⁹⁶ - بوطليحية ص: 58.

⁹⁷ - بوطليحية ص: 102-103.

للعلماء نسبة مكذوبة	قد حذروا من كتب منسوبة
لابن أبي زيد له تبين	من ذلك التقريب والتبيين
لابن أبي زيد بلا دلائل	كذلك ذو الفصول والدلائل
فعزوها له من الجنون	ومنه الأجوبة للسحنوني

وقال: وأجوبة محمد بن سحنون هذه ذكرها صاحب الأعلام من بين كتبه. قال الهلالي: « وقد حذر العلماء من تأليف موجودة بأيدي الناس، تنسب للأئمة ونسبتها باطلة، ففي نوازل ابن هلال: حذار من الأجوبة المنسوبة لابن سحنون، وما زال الأشياخ يحذرون الطلبة منها. وفي نوازل عبد القادر الفاسي ما نصه: « قال القوري أجوبة ابن سحنون لا يجوز الفتوى بما فيها، ولا عمل عليها بوجه من الوجوه، وكذلك التقريب والتبيين الموضوع لابن أبي زيد، وكذلك أجوبة القرويين، وكذلك أحكام ابن الزيات، وكذلك كتاب الدلائل والأضداد، فجميع ذلك باطل وبهتان. قال الإمام القوري رحمه الله: وقد رأيت جميع تلك التأليف ولا يشبه ما فيها قولاً صحيحاً. وفيما وجد من شرح المختصر للشيخ الزقاق حذر الأشياخ من الفتوى من أحكام ابن الزيات والدلائل والأضداد المعزوة لأبي عمران، ومختصر التبيين المعزوة لابن أبي زيد لأنها أباطيل وفتاوى الشيطان، وهي موضوعة غير صحيحة النسبة»⁹⁹.

مناقشة وترجيح:

بما أن طبيعة البحث العلمي تفرض على الباحث أن يبحث عن الأصل الذي نقل منه الكاتب هذا القول، قررت البحث عن هذه المخطوطة - نور البصر -، فوجدت نسخة منها بالخرزانة العامة بالرباط¹⁰⁰ وأخذت صورتها، وتبين لي بعد قراءتها عدم وجود هذا الكلام الذي نقله يحيى بن البراء، وإنما وجدت فيه وهو بصدد الحديث عن ترجمة ابن سحنون « وتوفي ابن سحنون سنة خمسين ومائتين، وكان نظير أبيه في الصلاح والعلم ومن أكثر الناس تأليفاً، وتأليفه الكبير في الفقه مشهور، وأما النوازل المنسوبة إليه فقد تقدم ما في نسبتها إليه والتحذير منها »¹⁰¹. وقوله: « وأما النوازل المنسوبة إليه فقد تقدم ما في نسبتها إليه والتحذير منها »

⁹⁸ - الليطان: يقال: شيطان ليطان: أي ملعون أو لاصق، ولاطه الله ليطاً: لعنه الله، قيل شيطان ليطان: إتباع. ينظر: اللسان: - ليط - 377/12.

⁹⁹ - بوطليحة ص: 103، الهامش 3.

¹⁰⁰ - واسمه هو: نور البصر في شرح خطبة المختصر، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم: 381 د.

¹⁰¹ - نور البصر ص: 163، نسخة الخزانة العامة بالرباط ورقمه: 381 د.

لم يشير إليه المحقق في الكتاب، مما جعلني أرجح أن يكون في نسخة الخزانة العامة بالرباط، والتي اطلعت عليها سقط وزيادة، سقط ما أشار إليه المحقق، وزيادة ما لم يشير إليه المحقق، ودفعني ذلك إلى البحث عن النسخ الأخرى إن وجدت، فهديت إلى ضرورة البحث عن النسخة التي اعتمدها المحقق لهذا النظم، وهي النسخة التي طبعت على الحجر بفاس 1309هـ، ولقد وجدت هذه النسخة والحمد لله رب العالمين في خزانة المجلس العلمي بالدار البيضاء¹⁰²، ووجدت فيه بالحرف¹⁰³: « وليحذر الطالب كل الحذر من الفتوى بكل ما يجده في كتاب من غير تمييز بين ما يكسبه عظيم الثواب، وما يلحقه أليم العقاب، فقد قال ابن الصلاح: اعلم أن من يكفي بأن يكون في فتواه أو علمه موافقا لقول أو وجه في المسألة، ويعمل بما شاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، فقد جهل وخرق الإجماع، وقد حكى الباجي عمن يوثق به، أنه وقعت له نازلة، فأفتى فيها جماعة وهو غائب بما يضره، فلما عاد سألهم فقالوا: ما علمنا أنها لك، وأفتوه بالرواية الأخرى التي توافقه، وهذا لا اختلاف فيه بين المسلمين ممن يعتد به في الإجماع أنه لا يجوز هـ بخ، وقد نقله بطوله الشاطبي في الموافقات. وإذا كان هذا حراما بالإجماع مع صحة نسبة القول إلى قائله، فكيف حال من يكفي بكل ما يجده في ورقة غير منسوب أو منسوب لمن لا يعرفه، أو لمن لا يعرف صحة نسبته إليه، كطائفة من الطلبة يفتون بأن طلاق الغضب لا يلزم، وأنه لا بد في اللزوم من تراضي الزوجين، وأن الحالف بالحرام على قطع رحم أو غيره من المعاصي لا يلزم، ويعتمدون على تقاييد مشتملة على أحاديث وآثار من السلف، وعلى نسبة ما فيها لكتاب معزو لابن أبي زيد وغيره، وهم لا يعرفون من قيد تلك التقاييد، ولا صحة شيء مما فيها ثبت، ويستريحون بما الفروج المحرمة بالإجماع، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، نسأل الله العافية. وقد حذر العلماء من تأليف موجودة بأيدي الناس تنسب للأئمة ونسبتها باطلة، ففي نوازل ابن هلال: حذار من الأجوبة المنسوبة لابن سحنون، وما زال الأشياخ يحذرون الطلبة منها¹⁰⁴، وفي نوازل الشيخ عبد القادر

¹⁰² - هذا المخطوط تحت رقم: 61 ضمن مجموع، وقد طبع بالحجر سنة: 1309هـ.

¹⁰³ - في الصفحة: 161، وأشار إلى أن هذا المخطوط لم يرقم، وإنما عددت الأوراق بنفسني فوجدت هذا الكلام في الصفحة المشار إليها أعلاه.

¹⁰⁴ - بحث عن هذه النوازل التي نقل منها الكاتب فوجدتها في خزانة خاصة في إقليم شوكة أيت باها جنوب المغرب، ولما تفحصتها وجدت ما يلي: وفي خصي الضأن هل يضحي به أم لا؟ زعم السائل أنه رآه مقيدا عن ابن سحنون أنه لا يجوز، وأجابه ابن هلال بقوله: فإن الخصي يجزئه على الإطلاق بأي نوع من أنواع الخصاء... نص على ذلك أبو عمران رضي الله عنه في تعليقه، وفرق بين قطع الأنثيين وقطع الأذنين، بأن الأنثيين وجد عنهما عوض وهو طيب اللحم ولم يوجد عن الأذنين عوض، بل ذلك نقص من الخلقة، وليس وراء هذا مطلب، وفي التنبيه للشيخ أبي الطاهر بن بشير رحمه الله ما هو كائنص على ذلك، فإنه قال: وقد انقسمت هذه العيوب إلى ثلاثة أقسام: قسم ينقص الجسم والمنفعة ولا يعود بمصلحة البدن، كقطع يد ورجل، أو ما في

الفاسي ما نصه: قال القوري: أجوبة ابن سحنون لا تجوز الفتوى بما فيها ولا عمل عليها بوجه من الوجوه، وكذلك التقريب والتبيين الموضوع لابن أبي زيد، وكذلك أجوبة القرويين، وكذلك أحكام ابن الزيات بالنزاء واليائي والنزاء، وكذلك كتاب الدلائل والأضداد، فجميع ذلك باطل وهتان، قال الإمام القوري رحمه الله: وقد رأيت جميع تلك التأليف، ولا يشبه ما فيها قولاً صحيحاً، وفيما وجد من شرح المختصر للشيخ الزقاق، حذر الأشياخ من الفتوى من أحكام ابن الزيات والدلائل والأضداد المعزو لأبي عمران، ومختصر التبيين المعزو لابن أبي زيد، لأنها أباطيل وفتاوى الشيطان، وهي موضوعة غير صحيحة النسبة هـ.

لقد اتضح أن مؤلف "نور البصر" إنما ينقل عن شيوخه، فقد نقل عن جده وشيخه الهلالي¹⁰⁵، وعن القوري¹⁰⁶ شيخ جده الهلالي، كما نقل عن عبد القادر الفاسي في نوازل نفس ما نقله عن القوري¹⁰⁷.

والمتمعن في هذا يجد ولا شك أن الذي قال بانتحال هذه النوازل هو شخص واحد، ألا وهو القوري-رحمه الله، ونقله عنه تلميذه إبراهيم الهلالي في نوازله، وعبد القادر الفاسي في نوازله، ثم نقله عن الهلالي حفيده أحمد الهلالي في نور البصر، وعنه نقل النابغة الغلاوي في طليحيته، وهؤلاء كلهم من العلماء المتأخرين، فالقوري عاش في القرن التاسع الهجري، والهلالي عاش في القرن العاشر الهجري، وعبد القادر الفاسي عاش في القرن الحادي عشر الهجري، وابن هلال الحفيد عاش في القرن الثاني عشر الهجري، والغلاوي عاش في القرن الثالث عشر الهجري، ولم ينقل هؤلاء عن واحد من الأئمة المتقدمين الأعلام أن ابن سحنون لم تكن له نوازل، أو أن تلك النوازل المنسوبة لابن سحنون فيها ما يخالف النصوص الشرعية، أو الراجح، أو المشهور من المذهب، اللهم ما كان له من الاختيارات، والمنهج العلمي يقتضي

معنى ذلك فهذا يمنع، قال واحترزنا بما لا يعود بمصلحة... فما حكيم من عدم إجزاء مقطوع الأثنين وقع في الأجوبة المنسوبة لابن سحنون رحمه الله وحذارا حذارا منها وما زال الأشياخ يحذرون الطلبة منها، وإن صح النقل فوجهه أن النبي ﷺ إنما ضحى بكبشين موجوعين هكذا في سنن أبي داود، والوجه هو رض الأثنين لا قطعهما، فالحاصل أن الحصى الجزئ عنده في الضحية هو الموجوء لا الحصى المجبوب ص: 22-23 من المخطوط. ونسخ هذا المخطوط أواخر شعبان: 1132هـ.

¹⁰⁵ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي، أخذ عن القوري وغيره، له نوازل وفتاوى مشهورة، وشرح مختصر خليل في أربعة أجزاء (ت: 903هـ). انظر نيل الابتهاج ص: 58، شجرة النور ص: 267-268.

¹⁰⁶ - هو محمد بن قاسم القوري المشهور بالقوري، المتوفى سنة 872هـ، له نوازل جمعت جملة منها مع نوازل تلميذه ابن هلال. انظر ابن مخلوف ص: 262، نيل الابتهاج ص: 318-320.

¹⁰⁷ - لقد اطلعت على نسخة من نوازل عبد القادر الفاسي في خزنة المجلس العلمي بالبيضاء، فوجدت فيها ما يلي: (السؤال الثالث ما تقول فيما تجد في مصنفات لبعض المتأخرين اعتمدوا فيها على أحكام يعزونها لمختصر التبيين تحيرت فيها لما حذرت منه الأئمة لمضي الفتوى بما إذ هي مكذوبة على ابن أبي زيد، كما حذروا من نوازل ابن سحنون وأحكام ابن الزيات، والدلائل والأضداد....) ج 40/2 من مخطوط المجلس العلمي بالدار البيضاء.

ويفرض على الناقد لمؤلف ما أن يوضح مكان الخطأ في الكتاب الذي ينتقده، حتى يكون القارئ أو المطالع على بينة من أمره، وهذا ما لم يحدث بالنسبة لأولئك الذين حذروا من أجوبة ابن سحنون، بل ظهر من خلال البحث في "تحقيق نسبة الكتاب إلى المؤلف" آراء عدد كبير من المؤرخين الذين ترجحوا لابن سحنون، وأشاروا إلى أن له أجوبة في موضوع الفقه المالكي، كما ورد في المبحث ذاته تحت عنوان: "النقول عن الكتاب" عدد كبير من الشيوخ المتقدمين الذين جعلوا أجوبة ابن سحنون عمدتهم في استقاء مادة مؤلفاتهم، فذكرت من هؤلاء: ابن سهل والتونسي اللذين عاشا في القرن الخامس الهجري، وعياضا الذي عاش في القرن الخامس والسادس الهجريين، وذكرت ابن شاس الذي عاش في القرن السابع الهجري، وذكرت خليلا وابن عبد الرفيح التونسي والفشتالي، الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري، وذكرت داود التلملي، الذي عاش في القرن التاسع الهجري، وذكرت الونشريسي الذي عاش في القرن العاشر الهجري.

ومن خلال استعراضنا لآراء المؤرخين والمترجمين، الذين نسبوا هذه الأجوبة لابن سحنون، والفقهاء الذين نقلوا عن هذه الأجوبة وهم عدد كثير، والرأي الذي ذهب إلى انتحال هذه الأجوبة على ابن سحنون، وهو القوري، يتضح ما يلي:

1- أن المؤرخين والمترجمين الذين أشاروا إلى هذه الأجوبة ضمن كتب ابن سحنون، لا يمكن أن ينقلوا ذلك إلا من مصادرهم الأصلية الصحيحة الموثوق بها، وإلا لشككنا في أغلب ما ينقله لنا المؤرخون والمترجمون، وخاصة منهم المعروفين بأمانتهم ودقتهم فيما يكتبون كصاحب "كتاب العمر" وصاحب "دراسات في مصادر الفقه المالكي" وصاحب "الأعلام".

2- أن الفقهاء والمؤلفين الذين جعلوا أجوبة ابن سحنون مصدرا من مصادر مادة كتبهم - وهم من هم - لا يمكن أن يخفى عليهم أمر انتحال تلك الأجوبة، وهم المحققون والحافظون لمذهب مالك أكثر من غيرهم، وهم أقرب زمانا إلى ابن سحنون من الذين قالوا بانتحال هذه الأجوبة على ابن سحنون.

3- أن هذه الأجوبة قد جابت العالم الإسلامي شرقا وغربا، ولا يخلو مركز إسلامي من نسخة من هذه الأجوبة، فقد وجدت نسخه في تركيا وفي مصر وفي تونس وفي المغرب وفي إسبانيا، ويصعب أن تجوب هذه الأجوبة الآفاق المذكورة لو لم تكن صحيحة النسبة لعالم كبير في قيمة ابن سحنون.

4- أن المطلع على هذه الأجوبة لا يجد فيها ما يتناقض مع الفقه المالكي، بل لا يجد فيها ما يتنافى مع الفقه الإسلامي بصفة عامة، فضلا عن أن يجد فيها ما يخالف الشريعة الإسلامية السمحة، رغم أنه يستدل أحيانا بالحديث الضعيف والموضوع، وهذا ليس عيبا فيه، وليس خاصا به، ولا يخلو مؤلف من المؤلفات التي ألقت في العصور المتقدمة من هذا العيب، خاصة إذا استحضرنا المرحلة التي عاش فيها صاحب الكتاب، والتي انعدمت فيها المؤلفات المتخصصة في الحديث ونقده، بل انعدمت فيها الكتب الفقهية، باستثناء الموطأ وكتب الأمهات، وخاصة المدونة، كما أن ابن سحنون رحمه الله يدي بدلوه في أكثر المسائل، ولكن بعد استعراض آراء فقهاء المذهب، وذلك ما حصل في السؤال الذي طرحه السائل على ابن هلال دون أن يدقق في ثنايا جواب ابن سحنون، فالسائل زعم أن ابن سحنون قال بعدم إجزاء الخصى في الأضحية، ولكننا إذا رجعنا إلى الأجوبة لم نجد ذلك، وإنما نجد ما يلي: وسألته عن الفحل من الضأن والمعز إذا قطعت أنثياه وخصي بالحديد، أترى أن يجوز في الأضحية أم لا؟ قال: قال ابن القاسم لا يجوز، لأن ذلك من النقص الذي فهم النبي عليه الصلاة والسلام عنه في الضحايا والهدايا، وقال ابن وهب لا بأس بذلك، وهو بمنزلة فحول الإبل التي لا تخصى إلا بالحديد، وهو قول أيضا لابن القاسم، وتوفي رحمه الله ولم يدر على أي قول ثبت. قال محمد: ترك ذلك أفضل إلا أن يكون معسرا فلا بأس به¹⁰⁸.

ومن خلال استعراضنا لما نقله الهلالي عن ابن سحنون، وما هو موجود في ثنايا أجوبة ابن سحنون حول هذه المسألة، نلاحظ أن ابن سحنون لم يقل بعدم إجزاء الخصى في الأضحية كما نقل عنه من زعم أنه رآه في أجوبته، وإنما نقل قول ابن القاسم وقول ابن وهب في المسألة، ثم قال مجتهدا: ترك ذلك أفضل إلا أن يكون معسرا فلا بأس به، والفرق واضح بين "لا يجوز" وبين "ترك ذلك أفضل...".

5- أن القوري الذي أشار إلى انتحال هذه الأجوبة، ربما -والله أعلم- له عذره، ولا يمكننا نحن أن ننقص من قيمة هذا الشيخ الجليل، وهذا العالم الكبير وعلمه، وعليه فلا يبعد أن يكون قد اطلع على نسخة من النسخ التي زاد فيها بعض النساخ بعض الأجوبة التي لم تكن لابن سحنون، ويؤكد ذلك ما أشار إليه بعض النساخ إما في مقدمتهم قبل البداية في كتابة الأجوبة، أو بعد انتهائهم من كتابة الأجوبة، فقد وجدت في بداية المخطوطة الأم، التي اعتمدها

¹⁰⁸ - انظر فصل الصيد والزكاة ص: 402 من الأطروحة.

في تحقيق الأجوبة ما يلي: «كتاب فيه أجوبة الإمام الفقيه العالم الأوحى أبي عبد الله محمد بن سحنون رضي الله عنه، وهي النسخة التي هذبها وصححها بنفسه قبل موته بعامين، وفصلها على عشرين فصلاً، فما وجدت من هذه النسخ المختلطة الأسئلة¹⁰⁹ غير مفصلة وغير متجانسة، فاعلم أنه من النسخ الفاسدة التي زاد فيها المبطلون ما ليس فيها». وفي آخر مخطوطة خزانة تدسي: «اعلم وفقك الله لما يحبه ويرضاه أيها الناظر في هذا الكتاب المسمى بأجوبة ابن سحنون رضي الله عنه قد حيز بالبحث عن السؤال عنها وجمعها وألفها الفقيه النبيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن سالم الأشعري رحمه الله وكتبها وكتبت عنه، وكثرت فيها رغبة الناس وكتبوها وانتشرت بأيدي الناس، ووضعت بيد بعض المبطلين، فأدركتهم الغيرة والحسد، فزين لهم الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل فهم لا يهتدون، فأدخلوا فيها دخلاً كثيراً، وزادوا فيها ما ليس للإمام، ولا يليق بمذهب من المذاهب، وأردفوا فيها كذباً كثيراً، ونسبوه إلى العلماء من الصحابة والتابعين، وإلى مالك بن أنس وأصحابه ونظائرهم وأئمة الأمصار رضي الله عنهم أجمعين، فليتفكر ذلك أولوا الأبواب من الفضل والنهي».

لائحة المصادر والمراجع

- 1- الأعلام قاموس تراجم: خير الدين الزركلي ط10 (1992) دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.
- 2- أبو طليحة محمد النافعة بن عمر الغلاوي (ت: 1245هـ - 1828م). تحقيق ودراصة يحيى بن البراء. ط1/1422هـ - 2002م. مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- 3- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت لبنان.
- 4- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت لبنان.
- 5- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام. برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم ابن الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن فرحون العمري المالكي. الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- 5- تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي (ت: 748هـ) (بدون تاريخ الطبع)، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- 5- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاظمي عياض، (ت: 544هـ)، تحقيق: عبد القادر الصحراني. ط2 - 1403هـ - 1983م وزارة الأوقاف - مطبعة فضالة - إخمدة المغرب.
- 6- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاظمي عياض (ت: 544هـ)، تحقيق: سعيد أعراب، ط1، 1401هـ - 1981م، وزارة الأوقاف - مطبعة فضالة - إخمدة المغرب.
- 7- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج. تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر: 1970.

¹⁰⁹ - في أصل المخطوط: "الأسئلة".

- 8- دراسات في مصادر الفقه المالكي. ميكولوس موراني. نقله عن الألمانية: سعيد بحيري وعمر صابر عبد الجليل ومحمود رشاد حنفي. راجعه: محمد فهمي حجازي وعبد الفتاح محمد الخلو. ط1/1409هـ-1988م. دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان.
- 9- الديباج المذهب في أعيان المذهب: لابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن القاسم بن محمد بن فرحون، ت799هـ. تحقيق وتعليق أحمد حمدي أبو النور. طبعة مكتبة دار التراث. القاهرة. مصر.
- 10- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. الشيخ محمد بن محمد بن مخلوف (بدون تاريخ الطبع) - دار الفكر - بيروت.
- 11- شذرات الذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت:1089هـ) (بدون تاريخ الطبع). المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت، لبنان.
- 12- طبقات الشافعية: أبو بكر بن هداية الله الحسني (ت:1014هـ) حققه وعلق عليه: عادل نويهض. طبعة2/1979م. دار الآفاق الجديدة. بيروت.
- 13- طبقات الفقهاء للشيرازي الشافعي (393-476هـ). حققه: د. إحسان عباس. الطبعة الثانية /1401هـ-1981م، دار الرائد العربي - بيروت - لبنان.
- 15- طبقات علماء إفريقية وتونس: محمد تميم. تقديم وتحقيق علي الشابي - نعيم حسن اليافي. الدار التونسية للنشر، تونس.
- 16- طبقات علماء إفريقية وتونس: محمد تميم. تقديم وتحقيق علي الشابي - نعيم حسن اليافي. الدار التونسية للنشر، تونس.
- 17- عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة. جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس (ت:616هـ) - دراسة وتحقيق - د: حميد بن محمد لحمر. جامعة - سيدي محمد بن عبد الله - فاس. الطبعة الأولى1423هـ-2003م. دار الغرب الإسلامي.
- 18- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي القاسي (ت:1291هـ) - 1376هـ ط1 (1396هـ) مطبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- 19- الكامل لابن الأثير. الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة1301هـ.
- 20- كتاب آداب المعلمين لما دون محمد بن سحنون التنوخي عن أبيه رضي الله عنهما، نشره وصححه وعلق عليه حسن حسني عبد الوهاب. مطبعة العرب تونس.
- 21- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، لحسن حسني عبد الوهاب. مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي. بشير الكوش. طبع دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط الأولى1990.
- 22- مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام. القاضي عياض وولده محمد. تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور محمد بن شريفة. الطبعة الأولى1990م. دار الغرب الإسلامي.
- 23- المذهب التربوي عند ابن سحنون، تأليف عبد الرحمان حجازي. المكتبة العصرية، صيدا بيروت. ط2/1416هـ-1995م.
- 24- مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة بعض من حوادث الزمان للإمام أبي عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المتوفى سنة768هـ. نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط1413هـ-1993.
- 25- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ. تحقيق: الدكتور محمد الأحدي أبو النور ومحمد ماضور. المكتبة العتيقة تونس.
- 26- المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. أبو العباس أحمد بن يحيى الوشيشي (ت:914هـ). نشر وزارة الأوقاف (1401هـ-1981م) مطبعة فضالة - المحمدية - المغرب.
- 27- معين الحكام على القضايا والأحكام لابن عبد الرقيق التونسي. ت733هـ. تحقيق: محمد بن القاسم بن عياد. طبعة دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان.
- 28- نور البصر في شرح خطبة المختصر. مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم:381. ومخطوط المجلس العلمي بالدار البيضاء رقم61 ضمن مجموع.
- 29- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج: لأحمد بابا التمكني. ت:1036هـ. إشراف عبد الحميد عبد الله الهدامة، منشورات كلية الدعوة، طرابلس، ليبيا. ط1989م.
- 30- الوفيات: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني. ت:805هـ. تحقيق عادل نويهض. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت لبنان. ط1978م.